

مركز اشراق

الترجمة واللغة العربية

للدكتور عبد العزيز برهام

طلعت علينا (الرسالة) الغراء باقتراح جليل لرئيس
حريرها الفاضل الأستاذ (الزويت) ؟ اقتراح لو أخذ به لد
نعماً يشعرك كل من عالج تعلم اللغات الأجنبية التي لا غنى عنها
في عصرنا الحديث . ولقد وفى الأستاذ الموضوع حقاً ؟ فأبان
حاجتنا الماسة إلى الترجمة في الأدب وفي العلم . وإنى لأستبجحه
أن أضيف إلى آرائه القيمة بعض أفكار تواردت على ذهني
حين قرأت اقتراحه :

إن حاجتنا إلى النقل من اللغات الأجنبية ليست وليدة اليوم ،
ولمّا شعرنا بها من يوم أن دب في بلاد الشرق ديب الحياة
وأخذت بعد سباتها العميق تستيقظ وتعمل بالغرب . عندئذ
أدرك الآخذون بأسباب من العلم والمعرفة أن مهنتنا لن تقوم
وتنجح إلا إذا قبضنا من نور الغرب ، فأخذت ترجمة الكتب
ولا سيما الأدبية تترى . وسار كل غيور على رفعة وطنه في هذا
التيار حتى رأينا كثيراً من الكتب النافسة نقلها من اللغات
الأجنبية جلة العلماء في عصر المنفور له (محمد علي باشا) ، ولكن
لم تكن هذه الكتب القليلة العدد شيئاً يذكر إن ووزنت بما كنا
في حاجة إليه إذ ذاك . ثم خطت الترجمة بعد ذلك خطوات واسعة
غير أن أغراضها تنوعت ، وصار للعنصر التجارى فيها شأن أى
شأن . فكلم من قصة ترجمت لم يقصد بها العلم وإنما قصد بها
الربح ! وسائر ترجمة الكتب انتشار الصحف والمجلات في أواخر
القرن التاسع عشر وفي أوائل هذا القرن . والصحف العربية
والمجلات لا تزال تعوّل على الجرائد الأجنبية في كثير من موضوعاتها
نجم عن ذلك كله أن اتسعت دائرة الترجمة إلى اللغة العربية
اتساعاً يبعث كثيراً من الأمل في نفوس ذوى الفيرة الوطنية . بيد
أن أكثر القائمين بأمر هذه الترجمات لم يكن بعبيراً باللغة العربية
بصره باللغة التي ينقل عنها . فكانت تستعصى عليه لذلك ترجمة
كثير من الأساليب التي لا يجد — لصغفه في العربية — مثيلاً
لها في لغة الضاد . فالتوت لغة الترجمة ركز ما عمد الناقل إلى
الأسلوب أو التعبير الأجنبي فنقله بنصه دون مراعاة لروح اللغة
التي ينقل إليها فنمضت على القارىء . وكثر ما دخل في اللفظة

العربية من كلمات أجنبية لم يستطع المترجمون أن يجدوا لها مدلولاً في
لغتهم فطفت على لغة الكتابة والخطابة ، واستعملها الناس في
حديثهم دون شعور بأعجميتها . وزاد الطين بلة تلك الحرية الواسعة
التي يتمتع بها المترجمون . وإنه ليسهل عليك أن تجد تعبيراً واحداً
في لغة أجنبية نقل إلى العربية بأساليب متعددة حتى يعجزك رد
هذا التعبير إلى أصله . ولقد تدهش أحياناً من أن كلمات عربية
دخلت منذ حين في لغات أجنبية فإذا ما أعيدت إلى لغتها الأصلية
أعيدت مشوهة . وما كلمة (الجراء) التي نقلت إلى الإسبانية
والفرنسية ثم عادت إلى اللغة العربية (الحميرة) بعيدة عن الأذهان ،
وإن الجرائد المصرية ليحللها دائماً حين تكتب عن (قناة السويس)
أن ترسمها (قنال السويس) (Canal de Suez) وناهيك بما
يمترس سبيلك وأنت تقرأ مجلة أسبوعية أو بركات جريدة يومية
من كلمات أجنبية لم يعمل المترجم فيها إلا أن كتبها بحروف عربية ،
وليته أعجمها حتى يستطيع الجاهل باللغة التي نقلت عنها قراءتها
صحيحة ، بل ترك للقارىء حرية الحدس والتخمين ، وتركك تسمع
في نطقها العجب العجيب . أولست كلمات رجم (Régime) ،
ستراتيجية (Stratégique) ، ومونوكل (Monocle) ، سامباتيك
(Sympatique) ، بوستة (Poste) ، وابور (Vapeur) ، شيرى
(Chéri) الخ ... الخ ... من الكلمات التي نقرأها ولم ند
نهتم بها كأنما صارت من صميم الكلمات العربية ؟

ولما كان لكل لغة قواعد النحوية والصرفية واللفوية
الخاصة بها فمن العسير أن ننقل من لغة إلى أخرى إلا إذا كنت
ملماً بقواعد كلتا اللغتين وإلا تعرضت للزال . أولاً يستعمل
العامة والخاصة فعل (أعطى) متعدياً لمفعول واحد فيقال : أعطيت
الكتاب لفلان ، كما يقول الفرنسيون J' ai donné le livre à un tel
وهو في اللغة العربية متعد لمفعولين فيقال : أعطيت فلاناً
الكتاب ؟ أو لم تجر أقلام الكتاب باستعمال (لا) قبل (يجب)
أوينبني (إذا أريد نقي ما بعدهما فيقولون : لا يبنى (أو لا يجب) أن
نعمل كذا "Il ne faut pas faire telle ou telle chose"
والعرب يقول يبنى ألا تفعل كذا وكيت عليك ألا تفعل
كذا وكيت ؟

تقد نقل الخطأ الشائع وأضرابه بديء ذي بدء من لم يكن
متكناً من اللغة العربية التي ترجم إليها ثم استعمله سواء من
بعده ولم يلبث أن انتقل إلى أقلام الخاصة .

وما نسباً هذا الخلط وعمت هذه الفوضى في الأساليب

« Rapport à cette question par » : « من وقت لآخر »
Du tempis en temps وهكذا وهكذا .

ثم إذا نحن جاوزنا لغة الأدب إلى لغة العلم لما تغير الأمر كثيراً ولا قليلاً . واللغة العلمية والمصطلحات العلمية أحوج ما تكون إلى أن تكون موحدة . ولن نصل إلى هذا التوحيد إلا إذا قضينا على الحرية المطلقة الفردية في الترجمة وأخذنا المترجمين جميعاً على استعمال تعابير بعينها .

هذا ، وإن بعض المواد لا يزال يدرس في (مصر) حتى اليوم باللغة الإنجليزية أو الفرنسية : إما لأن اللغة العربية لا تتسع — كما يقولون — لما وسمه غيرها من اللغات (وهي التي وسعت فلسفة الإغريق ، وحضارة الفرس) ؛ وإما لأننا لا نزال ندرج على سنة درج عليها آباؤنا من قبلنا وإن انقطعت اليوم الأسباب التي دفعت بهم إلى فعل ما فعلوا . وليس من سبيل لسد هذا النقص القوي وتخصير الطلب مثلاً إلا طوفان من الترجمات يحرف جميع الكتب القيمة الأعجمية التي وضعت في هذه المواد جرفاً لياق بها على ساحل اللغة العربية .

وبعد فإن ترك الترجمة فوضى شأنه اليوم يعرض سلامة اللغة لخطر مستمر ، وينقل إلينا سيلاً من الكلمات والتعابير الأعجمية التي تنخر في عظام الأساليب العربية للرصينة . وحسبك أن تقرأ كتاباً (كالبؤساء) الذي ترجمه حافظ إبراهيم أو غيره مما ترجم الأستاذ (الزيات) أو (النفلوطي) وهذه الكتب نفسها إن أشرف على ترجمتها ذوو الترجمات العاجلة الخاطفة لتلمس الفرق بين الترجمتين ، وتلدرك أيهما كتب باللغة العربية النصيحة : من بلاغة في الأسلوب ، وصفاء في الديباجة ، وسمو في البيان ، وتنوع في الصياغة ، ودقة في التعبير حتى لكأنك تقرأ القصة في لغتها وبأسلوب كاتبها .

وإنك لتعجب حين تقرأ كتاباً ما ترجم إلى لغات عدة من أن أثر الترجمة لا يحس إلا في اللغة العربية إن نقله إليها من لم يلم بالأمم تماماً . ولو علم كثير من كبار الكتاب الأعاجم مقدار ما يصيب آثارهم القذرة من مسخ وتشويه إن أسى ، نقلها لحرموا الترجمة ولآثروا أن يظلوا غفلاً في البقاع التي تسودها هذه اللغات المنقول إليها من أن يساء إلى بنات أفكارهم . أو لم تؤلف اللجان لترجمة القرآن حتى يحتفظ له ما أمكن في اللغة التي ينقل إليها بأسلوبه المعجز ، وسحر بيانه ، وجماله الفني ، وتصويره الرائع ؟

والتعابير وطلعت الروح اللغوية الأعجمية على روح اللغة العربية إلا لأن الترجمة نفسها لا تخضع لنظام . حتى إن كل من أقتن لغة أعجمية أو اعتقد أنه أتقنها استباح لنفسه الترجمة منها دون مراعاة لمبلغ قدرته في اللغة المنقول إليها . وإنه ليسهل عليك أحياناً أن تفهم بعض التعابير في لغتها الأصلية عن أن تفهمها في اللغة العربية ؛ وذلك لأن المترجم إما أن يكون ضعيفاً في اللغة العربية فلا يحضره من الألفاظ ما يسد به حاجة الترجمة ، أو أن يكون ضعيفاً في اللغة الأعجمية فينقل إليك التعبير دون تصرف فيه فتكون ترجمة حرفية سقيمة المعنى أو خلواً منه — وإني لأذكر — وأنا لا زلت طالباً بمصر — أن كنا ندرس في كتاب مترجم في « النظريات السياسية » . ولقد كان أكره الدروس إلى نفوسنا درس هذه المادة لمحبة النافعة . كانت ذاك لتعقد في أسلوب الكتاب كثيراً ما دعانا إلى أن نقف عند كل سطر وأن نكون أحياناً حلقات ندرس فيها ما يراد وما لا يراد من هذه العبارة أو تلك . وما أكثر ما أثرنا على أستاذ المادة — وكان أحد المترجمين — حتى لكنا نلجئه إلى قراءة الكتاب في (الفصل) لنفهم عباراته . وإن اقتضت هذه التراكيب الركيكة في اللغة السائدة في الكتب والمصحف ليتسرب إلى لغة كثير من فضلاء العلماء والأدباء دون أن يشعروا بأنهم ينزلون بلغتهم درجات . خذ مثلاً كتاباً من كتب القانون أو اقرأ الدروس التي يلقيها على طلبته بعض الشبان من رجال القانون الحديث العهد بالتدريس باللغة العربية ومستبين من غير عسر دوح الترجمة فيها . وإني لأنقل إليك عبارة واحدة على سبيل المثال تجدها في مذكرات للقانون الجنائي لعالم فاضل وأترك لك الحكم عليها .

« إذن فطبقاً للرأى الذى ساد المراد بالاختلاس أن الجاني يأتي بحركة مادية يخرج بها الشيء من حوزة غيره ويستولى هو عليه . وليس بذى شأن أن ينقل الجاني الشيء بيده كحالة اللص الذى ينشل محفظة من جيب المجنى عليه أو بواسطة كمن يحرض كلبه ... كذلك يكفى أن يهوى الجاني أسباب الانتقال وبعد ذلك يتم انتقال الشيء من تلقاء نفسه ... الخ ؟

وأشال هذه التعابير كثير : أنا شخصياً لا أقبل هذا .
Moi, personnellement je n'accepte pas cela .
« قابل صاحب الدولة رئيس الوزراء بوصفه وزيراً للخارجية en qualité de ... » هذا الأمر بالقياس إلى هذا ... »

فليس أماناً إذاً إلا سبيل واحدة لتسلكها حتى تحيط اللغة بسياج متين من تسرب الدخيل إليها وتحفظ عليها بنيتها وروحها وأساليبها — تلك هي الترجمة الدقيقة المنظمة . ولا سبيل إلى مثل هذه الترجمة إلا إذا قام بها من هو ذو بصيرة باللغة العربية وباللغة التي ينقل عنها . وإن إنشاء دار للترجمة وتزويدها بأعلام الأدب والعلم والفن ممن يحذقون لغات أعجمية هو الطريقة المثلى لتحقيق هذه الأمنية .

وإننا — كما يقول الأستاذ الفاضل صاحب الاقتراح — « إذا نقلنا إلى العربية نتائج القرائح لأقطاب العلوم والفنون والآداب من الإنجليز والأمريكان ، والفرنسيين والألمان ، والروسين والاطليان — أصبح هؤلاء المالئون جزءاً من كياننا الأدبي ، وركناً في بنائنا العلمي ، نعتز به ونستمد منه ونفخر فيه ونزيد عليه ، كما فعل آباؤنا الأقدمون بما نقلوه من علوم الإغريق والهنود واليهود والسرانيان والفرس » — ولجددنا في اللغة مع محافظتنا عليها ، ودعمنا النهضة ، وبرزنا القراءة ودعونا إليها ، ولهيأتنا للعلوم التي تدرس بلغة أعجمية في معاهدنا العلمية سبيل تدرسيها باللغة العربية ، ولأمددنا كتاب الصحف والمجلات بأساليب ترفع من ترجمتهم العاجلة ، ونسعفهم إن ضاق بهم الوقت ؛ ولاستطاعتنا كذلك أن نضع معاجم عربية — أعجمية يقل فيها الخطأ ويكثر فيها الدقة .

إن مصر ليجهل جمهرة أهلها اللغات الأعجمية . والذين يحذقون أكثر من لغة قليل مادم . وفي هذا التباين ما فيه من خطر قومي يدفع إليه تباين الثقافات ، فن ثقافة عربية إلى ثقافة أعجمية ، ومن ثقافة فرنسية إلى ثقافة إنجليزية أو ألمانية . وفي تنوع هذه الثقافات ما يخلق تبايناً في التفكير بين أفراد الأمة حتى ليتهم بعضهم بعضاً بالقصور عن مسايرة النهضة العلمية الحديثة أو يدل بعضهم على بعض . ولقد ألفت أذاننا سماع تفضيل ثقافة على ثقافة ، وألفنا الحديث عن مدارس الثقافة الفرنسية وعن مدارس الثقافة الإنجليزية وهكذا ، فاتسعت الهوة بين المنتمين إلى هذه والمنتمين إلى تلك ، فإذا نحن نقلنا هؤلاء جميعاً المؤلفات القيمة من مختلف الثقافات جعلناهم يتخذون بلبن واحد فاتحدت طريقة تفكيرهم ومادتها التي لن تكون إلا عصارات هذه الثقافات ممتزجة ، وزالت الفوارق بين طبقات التحليين ، واتتربت وجهة النظر بينهم ، وصاروا جميعاً أبناء أمة واحدة يرتبون من سهّل واحد هو الثقافة المصرية .

ثم ما ظنك بفريق من أديباء العلم والأدب الذين بنوا لهم مجداً شامخاً في الشرق على ما انتحلوه من آراء الأعاجيب دون أن يشيروا إليها أو يدلّوا عليها ؟ داء عسير دواؤه أصيبت به الطبيعة الشرقية لضعف في النفوس وجهل بها ، وعجز عن الابتكار والاختراع ، واستهانة بالقراء ، وغرام بالشهرة ولو كاذبة . وشجع على استفحاله أن الشرق ولاسيما المصري لم يُعَدَّ إعداداً يجب إليه القراءة والاطلاع ، والتعمق في العلم ، فهو يكتفى بما يقع تحت بصره دون تطلع إلى ما وراء ذلك ؛ وكان جهله باللغات الأعجمية أو بأكثرها من العوامل التي جعلته يقف في قراءته عند ما كتب بالعربية .

إن هذا الفريق من الأديباء سينكشف أمره ، وسيرى مجده يتداعى يوم أن ينقل إلى اللسان العربي جميع ما ألف في سواء أو جمهوره ، ويطلع الناس على مصدر الآراء التي ارتفع بها أقوام لا يستحقون الرفعة فيزولهم من حلق . وسيوصد الباب أمام هذه الفئة الطفيلية فتتخلص من شرورها وغطرستها .

وحبذا لو فكر القاعون بالأمر في وزارة المعارف في إرسال البعث من ذوي الكفاية في اللغة العربية لدراسة اللغات الأعجمية في مهدها ، ولا سيما وقد انفتح الطريق الآن بيننا وبين بعض هذه البقاع . ولو أن السنة التي خطها صاحب العالي محمد حلمي عيسى باشا حين كان وزيراً للمعارف في عام ١٩٣٣ انبت منذئذ إجماع لدينا الآن عدد لا يستهان به من الشبان الأكفاء الذين يسند إليهم هذا العمل الجليل ؛ فقلد أرسل معاليه بمشة للترجمة والتحرير إلى فرنسا وألمانيا وإنجلترا كانت الأولى والأخيرة . وشاء تغير الوزراء من بعده ، وعدم استقرار سياسة التعليم ، ونقض كل وزير ما أبرم سلفه أن ينقل هذا الأمر !

ولعل وزارة المعارف إن وصلت إليها هذه الصيحة وكتب لها أن تستأنف إرسال بعوث الترجمة أن تسند إليهم متى عادوا — بعد عمر طويل — أعمال الترجمة نفسها لا أن تكفل إليهم أمر عملية خزان أسوان أو كهربة خط حلوان ، أو أن تكافهم على جدم بتكليفهم العمل في حقول التجارب وفلاحة البساتين . والله الهادي إلى سواء السبيل .

عبد العزيز برهام
دكتوراه الدولة في الآداب
لبسانيه في القانون من باريس